

الخطوط الرئيسية لسياسة إنجلترا تجاه الدولة العثمانية

في القرن الثامن عشر

في الإمكان دراسة السياسة الإنجليزية تجاه الدولة العثمانية من خلال تطور وضع السفارة البريطانية في القسطنطينية . وقد كان السفير الإنجليزي منذ إنشاء هذه السفارة في عام ١٥٣٨ عميلا لشركة الليفانت . وكانت مهامه الرئيسية تتمثل في حماية مصالح الشركة التجارية ، والعمل على تطبيق نصوص معاهدة الامتيازات والسعي للحصول على مزايا تجارية للرعايا الإنجليز . وكان السفير يتقاضى مرتبه من الشركة التي تقوم بتعيينه في منصبه . أما الصفة الدبلوماسية التي منحت للسفير فقد قصد بها فقط وضعه في مركز يمكنه من الوقوف أمام المناورات الفرنسية في البلاط العثماني . وهكذا كان السفير الإنجليزي من الناحية الرسمية يمثل بلاط جلالة الملك بينما لم يكن من الناحية الفعلية أكثر من موظف في شركة الليفانت (١) .

ومن هنا جاءت الصفة المزدوجة لمنصب السفير الإنجليزي في القسطنطينية . وخلال القرن الثامن عشر وبتطور الاهتمام السياسي البريطاني بمشاكل الدولة العثمانية ، أخذ الجانب الدبلوماسي من عمل السفير يزداد أهمية ، كما أخذ تدخل الحكومة البريطانية يزداد بالتالي في تعيين سفراء بريطانيا لدى الباب العالي . والحقيقة أن منصب السفير البريطاني لدى البلاط العثماني كان من المناصب التي يشهد النزاح عليها من جانب الدبلوماسيين البريطانيين . ولا يرجع ذلك إلى أهمية المنصب من الناحية السياسية بل لما يدره من مكاسب مالية على صاحبه . فمرتب السفير البريطاني كان كبيرا بدرجة ملحوظة ،

(1) A. C. Wood, English Hist. Rev. Vol XL. 1925.

« The English Embassy of Constantinople 1660-1762 ».

هذا إلى جانب مصادر أخرى لدخول السفير كبيع البراءات^(٢) وغيرها من أنواع الحماية إلى جانب المبالغ التي كان يدفعها الباب العالي لممثلي الدول الأجنبية .

ولم يكن الجانب السياسى من عمل السفير أكثر من التوسط لدى الدولة العثمانية من ناحية وروسيا أو النمسا من ناحية أخرى وهى وساطة كان الهدف منها كسب سمعة طيبة للسفارة البريطانية وبالتالي تسهيل مطالب السفارة . ومنذ فجر القرن الثامن عشر بدأ الجانب الدبلوماسى من عمل السفير يطنى على الجانب التجارى تدريجيا . وانعكس ذلك بشكل واضح فى وضع السفارة ، فى سنة ١٦٩١ استطاعت الحكومة الإنجليزية أن تأخذ من شركة الليفانت حق تعيين السفراء فى القسطنطينية وإن بقيت الشركة تدفع لهؤلاء السفراء مرتباتهم . ومنذ سنة ١٨٠٣ أصبحت السفارة تابعة تبعية تامة لوزارة الخارجية البريطانية .

وهذا التطور فى وضع السفارة البريطانية حدث على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى من سنة ١٦٨٨ حتى سنة ١٧٨٠ ، والثانية من ١٧٨٠ حتى سنة ١٧٩٨ ، والثالثة من سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٨٠٣ . أما المرحلة الأخيرة فهى فترة الحملة الفرنسية على مصر التى أدت إلى التحالف البريطانى - التركى (١٧٩٩) ووضعت السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية فى خطوط مستقرة ظلت تسير عليها طوال القرن التاسع عشر . وقد تناول المؤرخون هذا الجانب بالدراسة المستفيضة^(٣) .

أما فيما يتعلق بالمرحلة الأولى (١٦٨٨ - ١٧٨٠) فيلاحظ أن بريطانيا لم تكن لها سياسة ذاتية محددة تجاه الدولة العثمانية . فقد كان اهتمام بريطانيا بالدولة العثمانية يأتى من زاوية الموقف الأوروبى نفسه - فى الفترة ما بين ١٦٨٩ ، ١٦٩٧ كانت إنجلترا

(٢) البراءة : هى الصك الذى تمنحه بعض السفارات فى القسطنطينية لأحد رعاياها ليتمتع بالامتيازات .

(٣) M. Ghorbal: The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehmet Ali. London 1928.

وكذلك محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو والحملة الفرنسية . القاهرة ١٩٥٢

في حرب مع فرنسا حول موضوع الحلف الكبير (Grand Alliance) ، وكان وليم الثالث ملك إنجلترا حريصا على عقد صلح بين الباب العالي والإمبراطور (النمسا) حتى يتفرغ الأخير تماما لمواجهة فرنسا . فنشب الصراع بين السفيرين البريطاني والفرنسي في القسطنطينية وكان لا بد أن تفشل مساعي Trumbull السفير البريطاني بالنظر إلى نفوذ فرنسا التقليدي لدى البلاط العثماني ^(٤) فأصدرت الحكومة البريطانية أوامرها إلى لورد باجت Paget السفير البريطاني في فينا بالتوجه إلى القسطنطينية ليبدل قصارى جهده للتوسط بين النمسا والدولة العثمانية . ولم يقدر للورد باجت أن يلعب سوى دور محدود جدا في صلح كارلوفتز (١٦٩٨) .

هكذا دخلت الدولة العثمانية في إطار السياسة البريطانية . ولكنه كان دخولا غير مباشر ومرتبطا بتزايد اهتمام إنجلترا بمشاكل القارة الأوروبية ، فلم تكن مشاكل الدولة العثمانية بهم إنجلترا لذاتها وإنما باعتبارها تابعة للمشاكل الأوروبية الأكثر أهمية من وجهة النظر البريطانية .

وفي سنة ١٧١٦ عادت إنجلترا مرة أخرى تسمى لعقد صلح بين الباب العالي والإمبراطور حتى يتفرغ الأخير للأزمة التي نشبت في إيطاليا بين الإمبراطورية وفيليب الخامس ملك أسبانيا ^(٥) . كذلك أصدرت Pitt رئيس الوزارة البريطانية إبان حرب السبع سنوات تعليماته إلى السفير البريطاني في القسطنطينية ليعمل على إقامة تحالف هجومي ودفاعي بين روسيا والباب العالي . وقد فشلت المحاولتان البريطانيتان .

والعامل الأساسي في هذا الفشل يرجع إلى طبيعة السياسة البريطانية إزاء الدولة العثمانية ، فهذه السياسة كانت تتحدد بعلاقات إنجلترا ببحرान الدولة العثمانية عدائية كانت أم ودية . أما بقاء الدولة العثمانية أو زوالها في حد ذاته فلم يكن يدخل على وجه التحديد في إطار هذه السياسة الانجليزية . لم يحدث هذا إلا في القرن التاسع عشر

(4) State papers, Foreign, Turkey, 20. Trumbull to shrewsbury, 1 July 1690. & Brit. Mus. Add. MSS. 8880, F.O. 66.

(5) A. Wood, op. cit. pp. 549-550.

وكنتيجة للحملة الفرنسية على مصر ، حين نمت المصالح البريطانية في الشرق الأدنى وفي الهند . والحقيقة أنه لما كانت السياسة البريطانية الدولية والأوروبية تقوم بصفة أساسية على العداء لفرنسا والتأييد للامبراطورية فقد كان لا بد أن تجيء مواقف إنجلترا واتجاهاتها - في شكلها الرئيسي - معادية للباب العالي الذي يعتبر فرنسا الصديق التقليدي له والامبراطورية العدو التقليدي .

ومن ناحية أخرى كانت إنجلترا - بصفة عامة تؤيد روسيا بسبب تجارتها في البلطيق . ففي الوقت الذي كانت تجارة البلطيق آخذة في الازدهار طوال القرن الثامن عشر ، كانت تجارة الليفانت في تدهور متزايد . ولما كانت التجارة المحرك الرئيسي للسياسة البريطانية فقد كان من الطبيعي أن تقف بريطانيا إلى جانب روسيا ضد الدولة العثمانية . فإبان الحرب التركية والروسية (١٧٦٩ - ١٧٧٤) كان الأسطول البريطاني - الذي كاد أن يستولى على القسطنطينية - تحت قيادة ضباط إنجليز^(٦) . ومن المعروف أن Dydale, Truvenan, Greig, Elphinston هم الذين أنشأوا البحرية الروسية في عهد كاترين . وكان مدير بنك البلاط إسكتلندا يدعى Sutherland وطبيب كاترين الخاص إنجليزيا يدعى Rogerson ، كما كانت Maria Guthrie مديرة للدير الامبراطوري الذي يقوم بتعليم الارستقراطية الروسية^(٧) . وقبيل توقيع معاهدة كتشك قينارجة التي أنهت هذه الحرب ، أسرع فرجين الوزير الفرنسي إلى التشاور مع بريطانيا وعرض مشروعا للتدخل المشترك من جانب بريطانيا وفرنسا لوقف استيلاء الروس على القرم . ويشير فوكس Fox إلى هذا الحادث بقوله فيما بعد « لقد كنت أحد وزراء جلالة الملك في ذلك الوقت . وكانت الإجابة التي نصحت

(6) W. Miller, the Ottoman Empire and its successors 1801-1927. Cambridge 1927. p. 14

(7) G.B. Hertz, British Imperialism in the 18th Century. London 1908 p. 166.

بها أن جلالة الملك لن يقدم أى احتجاج على هذا الموضوع أو يضع صعوبة في طريق الأمبراطورة (كاترين)»^(٨). وتمثل الفترة ما بين ١٧٨٠ و ١٧٩٨ مرحلة انتقال بين السياسة الإنجليزية المتسمة بطابع عدم الاهتمام بل العداء للدولة العثمانية وبين سياسة بريطانيا القائمة على تمامية الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر.

فحتى عام ١٧٨٣ كانت الامبراطورية البريطانية أنجلوسكسونية في أغلب بقاعها ، واستعمارية في جوهرها ، بينما كان مركز الثقل في الامبراطورية فيما وراء البحار يتركز في أمريكا . وفي عام ١٧٨٣ تغير ميزان الاهتمام والقوة داخل الامبراطورية ، فانتقل نحو الشرق وفي البنغال بالذات بينما لم يعد لأمجلترا من مستعمرات أنجلوسكسونية سوى جزر الهند الغربية ونوفاسكوتيا ونيوفوندا لاند . وبانتقال مركز الجاذبية في الامبراطورية نحو الشرق أصبحت تجارة بريطانيا ومسئولياتها السياسية في آسيا شاغلها الأول فيما وراء البحار فكانت مسائل الهند على الدوام أمام البرلمان والرأى العام ، وأصبحت المحافظة على طرق المواصلات بين أمجلترا وممتلكاتها في آسيا المشكاة الرئيسية للبحرية البريطانية ، كما أصبحت المهمة العسكرية الرئيسية المحافظة على هذه الممتلكات الآسيوية .

هذا الوضع الجديد للامبراطورية البريطانية هو الذى أدخل الشرق الأدنى في إطار الاهتمام السياسى لبريطانيا . وفيما بين عام ١٧٨٨ و ١٧٩٢ اختفت فرنسا كمنافس عنيد لأمجلترا في ميدان التوسع الاستعمارى بسبب الثورة الفرنسية وتدهور البحرية الفرنسية في عهد الثورة ، وبدت روسيا كمنافس خطر بتحكيمها في طرق المواصلات البرية في وسط آسيا . وفي الوقت الذى عجزت فيه فرنسا عن أن تقدم أى مساعدة جدية لتيبو صاحب الثأر في جنوب الهند ضد النفوذ البريطانى ، كانت

(8) Hansard's parliamentary history Vol. 29, 1791-92 p. 63.

كأثرين تنظر بعين الاعتبار لمشروع إرسال قوات مسلحة عن طريق بحر قزوين لمهاجمة البريطانيين في البنغال^(٩) .

ولقد كان حزب التورى فى انجلترا أكثر إدراكا لحقائق الوضع الجديد للإمبراطورية البريطانية وبالتالي لمستلزمات السياسة الخارجية لـانجلترا - بينما ظل حزب الهويج ، بسبب الحركة الانجليكية ، شديد العداء لتركيا - وإلى جانب هذا ظلت تجارة البلطيق تجذب بشدة السياسة الانجليزية لتأييد روسيا . وهكذا كانت السياسة البريطانية عام ١٧٨٣ تتجاذبها عوامل متضاربة - من ناحية كانت هناك المستلزمات السياسية للموقف الجديد للإمبراطورية البريطانية تحتم تأييد وحماية الدولة العثمانية ، ومن ناحية أخرى كانت المصالح التجارية الضيقة تشير إلى ضرورة الاصرار على صداقة روسيا .

وتعكس مشكلة أو كزا كوف (١٧٩١) وموقف بريطانيا هذا التضارب العنيف فى السياسة البريطانية؛ فلقد انقسم كل من الرأى العام والحكومة فى بريطانيا حول هذه الأزمة انقساما حادا .

فى ١٧٨٧ نشبت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية - وفى أواخر ١٧٨٨ استولى الروس على قلعة أو كزا كوف وأصبح قلب الإمبراطورية العثمانية مفتوحا أمام الغزاة . ولكن سياسة التحالف الثلاثى كانت تنادى ببقاء الوضع الراهن للموقف فى الشرق الأدنى . وكان هذا يعنى بطبيعة الحال عودة الوضع كما كان عليه فى شرق أوروبا دون أن تستولى روسيا على كزا كوف . وفى مارس ١٧٩١ أرسلت الحكومة البريطانية إنذارا إلى روسيا تطالبها بإرجاع كافة الممتلكات التى استولت عليها - باستثناء القرم إلى الباب العالى . وكان بت فى رئاسة الوزارة وهو ينتمى إلى حزب التورى ، بينما وقف حزب الهويج بصحافته ونوابه موقف المعارضة العنيدة التى نجحت آخر الأمر فى أن تزحزح بت عن سياسته الموالية للدولة العثمانية .

(9) Cambridge History of the British Empire Vol. II. p. 48.

وواضح من المناقشات التي دارت في مجلس العموم ومما كتبتة الصحافة المعاصرة أنه كانت هناك ثلاثة عوامل حددت موقف بت ووزارته ونوابه في معارضة التوسع الروسي . أولا - أن التقدم الروسي في البحرين الأسود والأبيض سيفتح الطريق أمام التجارة لعملاء جدد وأن هذه البحار ستخضع للقوانين الروسية في الملاحة . وكانت جريدة « The Public Advisor » (حزب التوري) أشد قلقا على توازن القوى في أوروبا والبحر الأبيض . فكتبت في ١٢ يناير ١٧٩١ تقول عن روسيا « إنها تستطيع وتقوم فعلا بتهديد كل أوروبا ، إنها دولة إذا لم يوقف تقدمها الحالي ضد الأتراك ستحصل في السنوات القليلة القادمة على سيطرة بحرية في أوروبا فلانجلترا وفرنسا وأسبانيا وهولندا مصلحة مادية ضد روسيا - وبذلك يكون مدعاة للدهشة ألا تتخذ خطوات حاسمة حتى الآن لتأييد الأتراك . إن انجلترا لا تستطيع ولن تقف موقف الحياد بعد ذلك ازاء كل توسع تقوم به روسيا» . واقترحت جريدة St. James Chronicle^(١٠) أن تستغل انجلترا أزمة اوكرزا كوف للتقارب نحو تركيا فتستولي بذلك على ميراث فرنسا في الشرق الأدنى قبل أن تفيق فرنسا من الثورة . أما العامل الثاني فهو أن مستقبل روسيا الاقتصادي ينذر بأن تصبح روسيا منافسا خطرا للمصدرين الإنجليز بينما لا يستطيع تركيا أن تكفي نفسها ذاتيا من ناحية الانتاج وأنها أضعف من أن تثير خوفا أو حقدا^(١١) .

أما العامل الثالث فكان اهتمام انجلترا بمستقبل مصر . فكابتن Sutherland وهو رحالة في الليفانت نشر كتابا في عام ١٧٩٠ عن رحلته من جبل طارق إلى القسطنطينية . وفيه عبر عن وجهة نظره حول الحرب الروسية - التركية . وكان يعتقد أن فرنسا ستطلق يد روسيا والنمسا ضد تركيا حتى تفرغ هي للاستيلاء على جزيرة كريت ومصر . فإذا تم ذلك فإن انجلترا ستضطر إلى التخلي عن تجارتها

St. James chronicle April 7, 1791.

(١٠)

J. Ewart, Observations on the nature of the connection (١١) .
that hitherto subsisted between Great Britain and Russia. London
1791.

في الليفانت . « وفي وقت قصير يستطيع الفرنسيون عن طريق برزخ السويس أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى تجارتنا في الهند كذلك »^(١٢).

ولواجهة هذه الخطط الفرنسية اقترح الكاتب أن تقوم إنجلترا وأسبانيا وتركيا بعمل مشترك في البحر الأبيض ضد روسيا . كذلك عبر لورد بلجراف في مجلس العموم عن مخاوفه من أن تحقق روسيا « السيطرة الكاملة في البحر الأبيض باستيلائها على الإسكندرية عقب عبور الدردنيل »^(١٣).

ومن أهم الدراسات المعاصرة التي عرضت لموضوع مستقبل مصر السياسي إبان أزمة أوكزاكوف تلك التي قدمها سير جون دارمبل Sir John Dalrymple .

لم يكن سير جون يؤيد أساساً سياسة بت . فهو يضع تجارة البلطيق في الاعتبار الأول لتحديد موقف إنجلترا من النزاع بين تركيا وروسيا . ومع ذلك فقد كان

دارمبل يرى أنه إذا اضطرت إنجلترا إلى دخول الحرب لإتقاذ الدولة العثمانية فيجب أن تكافأ على ذلك « باحتلال مصر » . والواقع أن دارمبل كان أحد السياسيين

البريطانيين القلائل الذين نادوا في ذلك الوقت باتباع سياسة بريطانية نشطة في الشرق الأدنى للمحافظة على الامبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها ولتعويض خسائر بريطانيا

في حرب التحرير الأمريكية . وإلى جانب ذلك فقد كان دارمبل يرى أن احتلال مصر سيؤدي إلى إنعاش التجارة البريطانية في البحر الأحمر . وذهب إلى حد وضع مشروع

كامل لنظام الحكم في مصر . فمن الناحية الشرعية تظل مصر ولاية عثمانية وعلى الباب العالي أن يقنع بجزية سنوية قدرها ١٣٠ ألف جنيه سنويا (وهو قدر لم يكن

يحصل عليه من البكوات الماليك) إلى جانب ١٥٠ ألف طن من الحبوب . أما إنجلترا

(12) Account of a tour up the straits form Gibraltar to Constantinople.

(13) Hansard, op. cit. Vol. 29. p.180.

فتقيم « قاعدة عسكرية كبيرة في مصر ليس فقط للدفاع عنها بل وكذلك لتقديم المساعدات العسكرية للسلطات البريطانية في الهند إذا لزم الأمر »^(١٤) .

وهذه الناحية بالذات أى استخدام مصر كحلقة للاتصال بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند تبرز كذلك في كتابات كل من جورج بلدوين^(١٥) وكابتن تايلور Taylor . فقد كان تايلور يرى أن تستغل إنجلترا تأييدها للدولة العثمانية في أزمة أوكزاكوف لتحصل من الباب العالي على السماح للملاحة البريطانية في خليج السويس وفيما بين جدة والسويس^(١٦) . كذلك كتبت جريدة The Public Advisor (٢٩ أبريل ١٧٩١) حول هذا الموضوع فاقترحت أن تعرض إنجلترا على الباب العالي حصولها على حق استخدام البحر الأسود والبحر الأحمر للملاحة البريطانية مقابل كافة الخدمات التي تقدمها إنجلترا للباب العالي « وبالملاحة في البحر الأحمر تعمل بريطانيا على إحياء التجارة مع جزر الهند الشرقية عن طريق برزخ السويس ، وذلك بنقل بضائنها من هناك برّاً إلى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية بحراً إلى أوروبا » . وسيؤدى هذا في اعتقاد الجريدة إلى تنشيط التجارة البريطانية على سواحل آسيا وفي فارس بالذات . ثم عرضت الجريدة للمصاعب التي قد تعترض هذا الموضوع فقالت « ولكن هذا المشروع سوف يسبب قلقاً للشركات التجارية الرئيسية » (الليفانت وشركة الهند الشرقية البريطانية) .

رغم ذلك لم تقابل هذه الحجج التي عبر عنها بت ومؤيدوه بالرضاء من غالبية رأى العام البريطانى أو حتى غالبية أعضاء الوزارة البريطانية . ففي نطاق رأى العام كان حزب الهويج بصحافته ونوابه في البرلمان يقف موقف المعارضة الصريحة ، هذا بينما لم يكن يؤيد بت في داخل الوزارة سوى لورد ليدز Leeds وزير الخارجية .

Queries, pp. 75-85.

(١٤)

M. Anis; England and the Suez Route. Cairo 1957.

(١٥)

I. O. H. M. 4. 36 (2). Taylor to Abercrombie 1790.

(١٦)

والواقع أن موقف بت كانت تكتنفه نقط ضعف واضحة . فلا هو ولا لورد ليدز شرحا المدى الذي ستسير فيه إنجلترا في معارضة روسيا بل حتى لم يشرحا للرأى العام البريطانى شرحا كاملا مدى الخطر الذى تتعرض له المصالح البريطانية من التوسع الروسى . فقالت The Annual Register أنه «ربما كان فى إمكان بت أن يتدخل فى جانب تركيا إذا كان حرا فى أن يذكر كل ما يعرفه عن مدى الخطر القابع فى الشمال وهو الخطر الذى كشفت عنه الأحداث بعد ذلك للعالم»^(١٧) .

ولعل أحد العوامل التى أدت إلى تعذر اتباع سياسة بت ، الضرائب الجديدة المنتظر جمعها من الشعب الإنجليزى بعد الضرائب التى أرهقته إبان الحرب الأخيرة مع أسبانيا - وثمة سبب آخر أكثر وضوحا وهو الحرص على تجارة البلطيق مع روسيا - فحزب الهويج كان يمثل بالدرجة الأولى البورجوازية الإنجليزية ولذلك جاء موقفه من المسألة منحصرًا فى حدود المصالح التجارية الضيقة بقطع النظر عن الاعتبارات الإمبراطورية والسياسة النابعة من الوضع الجديد للإمبراطورية البريطانية . ولذلك انتقدت جريدة The Morning Chronicle ماسمته بسياسة إفقار «أحسن زبائننا» ، وقالت «من الحقائق التى لا يجب إنغفالها أن روسيا تأخذ من بضائعنا وتوظف من الأيدي العاملة البريطانية أضعاف ما كانت تفعله الثلاثة عشر ولاية فى أمريكا حين كانت هذه مستعمرات تابعة لنا»^(١٨) .

ولا شك فى أن أحد العوامل الهامة التى أثارت الرأى العام البريطانى ضد خطة بت كان دينيا . فلقد كان الكاتب الإنجليزى Burke يعبر عن الاتجاهات الرجعية فى السياسة الإنجليزية .

وكانت الحركة الإنجليكية فى عنفوانها تقف جنبا إلى جنب مع صيحات بيرك لتبارك الرجعية البريطانية . واستطاع حزب الهويج فى عام ١٧٩١ أن يتخذ منهما سلاحا ضد كل انقلاب فى السياسة الخارجية البريطانية . فأشار مؤلف أو مؤلفو

The Annul Register. p. 107.

(١٧)

The Morning Chronicle. April 19, 1791.

(١٨)

كتاب Short Reasonable Hint في ١٧٩١ إلى « العبودية المؤلة والشائنة التي تتعرض لها الشعوب المسيحية في الإمبراطورية العثمانية »^(١٩) وكتب مؤلف An adress to the People of England عام ١٧٩١ يحتج على « هجرة حلفاء قدامى من أجل الانضمام إلى أعداء المسيحية » .

أما مجلس اللوردات فعلى الرغم من حملة Fitzwilliam وPorchester وStarmont وLandsdowne فقد فازت الحكومة بتسعة وسبعين صوتاً مقابل أربعة وثلاثين^(٢٠) . وفي نفس اليوم نوقشت المسألة في مجلس العموم . فقال Fox أنه يعجب لأن بريطانيا تصدر ما يعادل ٤٠٠ ألف جنيه من البضائع في العام إلى روسيا وتستورد منها ما يقدر بمليونين وخمسمائة ألف ، وأغلب هذه البضائع تنقل على مراكب إنجليزية ، كما أشار إلى « أن إنجلترا لا تستطيع أن تدخل الحرب من أجل مدينة (اكزاكوف) مشكوك في أهميتها ، فهي على كل حال أقل أهمية من القرم » . أما Burke فكان يردد حملة حزب الهويج العنيفة على تركيا ويرى أن لا أهمية لها في ميزان القوى في أوروبا . « ما دخل هؤلاء البرابرة بالدول الأوروبية ، إنهم لا يفعلون أكثر من نشر الحرب وإراقة الدماء وإثارة المتاعب بين الدول الأوروبية . أن أى شىء مسيحي يجب أن يفضل على هؤلاء البرابرة المخربين »^(٢١) .

وعلى الرغم من هذه الحملة فعند أخذ الأصوات حصل حزب التورى على ٢٢٨ صوتاً مقابل ١٣٥ صوتاً في المعارضة .

وفجأة تراجع بت رغم هذه الأغلبية التي ساندته في مجلسى اللوردات والعموم . وثمة أسباب كثيرة لتفسير هذا التراجع . في مقدمتها أن المعارضة ضد سياسة بت كانت قوية وتزداد قوة خلال المعركة سواء في الصحافة ، أو البرلمان . ولعل أهمها أن انقساماً

(19) G. B. Hertz, British Imperialism in the 18th Century. pp. 9-11.

(20) Hansard op. cit. vol. 29 p. 52.

(21) Ibid. pp. 63-70.

حادا وقع بين الوزراء فلقد كان بت ووزير خارجيته لورد ليدز يقفان في جانب واحد ، أما جرنفل فقد كان مترددا منذ البداية . وفي ٣٠ مارس حذر Richmond وزير الخارجية من أن الشعب الإنجليزي قد يتخلى عن تأييده لحكومة بت إذا أصرت على موقفها من هذه المسألة^(٢٢) ورد ليدز على ذلك بأنه لم يعد في الإمكان التراجع . وإبان اجتماع الوزارة مساء ذلك اليوم تكلم رتشموند وجرنفل وكذلك Stafford ضد التدخل .

و حين استأنفت الوزارة اجتماعها في اليوم التالي وجد ليدز نفسه مع لورد Chathan يؤيدان وحدهما رئيس الوزارة . وأعلن لورد ليدز في الاجتماع أنه سيقدم استقالته إزاء موقف الوزارة الجديد لأنه لا يقر التراجع . وعندئذ أعلن بت تراجعاً عن موقفه . وهكذا فشلت المحاولة البريطانية الأولى للتدخل في جانب الدولة العثمانية ضد التوسع الروسي في قلب الدولة العثمانية .

و واضح أنه على الرغم من فشل محاولة بت ونجاح السياسة البريطانية القديمة تجاه النزاع الروسي - التركي ، فإن نواة السياسة البريطانية القائمة على المحافظة على التكامل السياسي للدولة العثمانية ، قد بدأت في الظهور .

محمد أنيس